الشباب الراحل

عزيز علينا فقد الشباب . عزيز علينا ان نقتطف الازهار البالغة ابان نضرتها وجمالها وان تهوى الكواكب الساطعة وهي اشد ما تكون ضياء واشراقاً

عزيز عليّ نعي الشباب ومن ذا اليوم انعى . انعى اخي وحبيبي ولكم التي في ذكر مصابي بهِ من اللوعة والالم ولكنها لوعة مستحبة والم مستطاب. فقد الاخ خطب جلل ويا هول الخطب في شبابهِ الغض النضير

الشباب ربيع العمر وليس من سنن الطبيعة ان تذوي ازهار الربيع قبل اكتمالها فوا اسفاً على كل زهرة عبثت بها الريح العاصفة فاقتطفتها

الشباب روضة المنى ومسرح الآمال فوا لهفاً على البسمات العذبة والآمال الرطبة تتوارى تحت التراب

الشباب يد الخير العاملة لاحياء كل نهضة مباركة فواحسرتا على كل شاب صالح يموت

اي اخي وحبيبي ماذا اقول اليوم فيك وانا لا اكاد امسك القلم حتى تنثابني ذكريات لذاعة موجعة يطير لها لبي وتحترق بها نفسي احتراقاً . علمتني مصيبتك الالم وكنت لم اذق للالم طعماً ودهتني نائبتك في وقت كنت فيهِ اشد الناس فرحاً بك وبما وصلت اليهِ من حظ في الحياة فكانت تلك الصدمة الفاجعة كافية لان تسحق قلبي سحقاً

حل بك المرض وانت مغترب لبلوغ امنيتك ناء عن اهلك ووطنك وأحطت من العناية بكل ما يشفي سقم مريض لو ان وراء العناية الشفاء ولكن لم يغنك عطف الام الحنون وبر الاب الرحيم ورعاية الطبيب القدير عن الشعور بلهف الى العودة الى قرينتك الصغيرة العزيزة وحسبت ذلك من نفسك وحسبناهُ منك وفاء اذ كانت شيمتك الوفاء فاذا بهِ داعي الردى دعاك ليضم ترائك الى تراث الآباء والاجداد فجئت ملبياً

اشفقت المقادير ان تجرعك الكأس بعيداً عن الديار الحبيبة اليك ورحمت زهرة شبابك ان تذبل بعيداً عن منبتها فساقتك الى مسقط رأسك ومهد طفولتك وملعب صباك معدة لك في ثراهُ قبراً ومثوى

ما انس لا انس يوم عودتك من العاصمة . فلكم خفقت الافئدة وتطلعت العيون قبيل اللقاء كأنما شعرت بما سيكون من هول الموقف وروعة المنظر فاهي الا لحظات حتى اشعل مرآك لهيب الحزن في نفوسنا وادمت الاكباد عبرات منك على الوجه الشاحب مسترسلة

ما الذي ابكاك يا حبيبي اعز عليك ان تكون موضع العطف لما اورثك المرض من عجز ام استثارت في نفسك المناظر القديمة والربوع المحبوبة ذكرى الماضي الجميل . ام اوحي اليك بما سطر لك في لوح القدر فارسلت تلك العبرة تندب بها شبابك الذاهب وتدعها لنا من بعدك ذكرى مريرة تذكي اللوعة وتهيج الشجن

اواه يالغضاضة الذكرى . دب دبيب السقام في الجسم الرقيق وطاب لهُ في الصدر الرحب مقام . غبط المكارم ان ترتع هانئة في مستقرها الفسيح وغبط الشباب ان يدوم لهُ البشر والصفاء فتسرب خلسة حتى تمكن وعز استئصالهُ والقى الشباب طريح الفراش شهوراً

لشد ما يعاني المريض ذو المشاعر الحية والادراك اليقظ ولشد ما عانى اخي من فرط الحزن على نفسهِ لان هجمات المرض العنيفة المتكررة استنزفت دم شبابهِ قطرة قطرة ولم تبق منهُ الا جسماً منهوكاً يتململ ورأساً يهز نادباً وصوتاً ملؤهُ الانين والتوجع وبدين ضارعتين متوسلتين وعينين مقروحتين تذهلان ساعة ثم تنفتحان وقد غشي بريقهما خيال القلب الكسير

لكن كل هذا لم يحرمهُ لذة الامل بل لقد بقيت فيهِ منهُ بقية يجددها مطلع كل فجر جديد ويحيي بها طول نهارهِ فاذا ما اقبل الليل كثرت اشجانهُ وزادت آلامهُ وفاضت منهُ عبارات العتب واللوم والشكوى والمناجاة يهمس بها في جوف الليل على قدر ما تسمح قواهُ الخائرة :

« ويلي منك يا ليل ما اطولك وما اكثر ما الاقي فيك حتى اكاد احسب ان لا آخر لك . يا ليل قد جرعتني غصص الاسى وحرمت عليّ طيب الكرى . ظلامك الدامس ينقيض لهُ صدري او ما كفاك ما بصدري من داء دفين وخطواتك المتثاقلة تضيق لها انفاسي حتى اخالك تعمل لاستنزاف القطرة الباقية من دم حياتي . وسكونك السائد يجعل المكان حولي موحشاً مرعباً . وقديماً كنت ارى فيهِ الجمال والجلال . هنيئاً للنيام . هنيئاً لنفوس هادئة نشرت عليها لواءك وظللتها

يستارك . هنيئاً للمكدود طول نهاره جاهد وتعب ثم مسحت عرقهُ وأرحت بدنهُ هنيئاً لهم والويل لي اضناني المرض وابقيتني يا ليل ساهراً ابكي شبابي

يا ليل . بك الساعة يترنم من اسعدت. وفيك تجد الاعين الساهرة لذة وبهجة في كل ما تشتهيهِ القلوب الشابة من طرب ومرح . ومنك لله يشكو مثلي المعذب الشقي ما انا يا ربي بحاسد فكل الناس اليّ اخ وحبيب

احمل عني يا ليل للشباب الذي اعتزلني المرض من بين صفوفهِ رسالة يعليها على الحنين والوفاء . ايتها النفوس المطمئنة . ايتها الوجوه المستبشرة . ايتها العيون المتلألئة . ايتها الثغور الباسمة . ايتها القلوب الراقصة . حيّ عهد الشباب وانعمي بكل ما فيهِ من ملذة نقية طاهرة واشربي كأسهُ المذبة المريرة زلالاً صافياً . متعك الله بالصحة فهذه كبرى النعم وبدونها لا قيمة للحياة

عيل صبري وبلغ بي الضعف منتهاهُ وانت يا ليل قاس لا ترق ولا ترحم. اليك عني فقد كللت وملت وانت بتباطوءك تطيل عذابي وتشقي الى جانبي اعز اعزائي ابي وابي واخوتي واهلي كلهم محزون لما الاقي ولكن من ذا يشعر بمبلغ ما اشعر انا وحدي المحترق بجمرة الالم . هلاّ اقبل الفجر فيخفف سأمي وينعش روحي فيبعث في الوجود الحياة . هبي يا نسمات الصباح وافشي سحب اليأس . اليّ ايها الامل اليّ يا عزاء المحزون ومواسي المكلوم لا تبرحني بل ابق معي انيساً ونصيراً

استرحمي يا اماه فلشر ما يشقيني ان اكون سبب عنائك . اضناك السهر الى جانبي والتألم لألمي وانا اعلم انك تحتملين كل هذا راضية راجية خيراً فلعل الاقدار الرحيمة ستجزينا عما قريب على طول صبرنا باحسن الجزاء »

يا للشباب ما اوسع املهُ . ويا للمستقبل ما اشد تلهفتهُ . انطوى النهار ودخل الليل وطمأنا ان لم نرَ في وجه مريضنا الشاب تلك الروعة التي كان يستقبل بها سابق لياليهِ بل جلس على غير عادة ينعم بالقمر المنير والنسيم العليل والسماء الصافية راجياً نوماً هادئاً عميقاً يستعيض بهِ عن سهرهِ الطويل . ولكن انّى لهُ هذا وقد اضمر لهُ الليل غدراً وفي لحظة شعر باغارة شديدة تلتهب نصفهُ من بين جنبيهِ فطلب الدواء يحاول احتباسها ولكن حُمَّ القضاء ونفذت مشيئة الله واسكب الموت فجأة آخر قطرة من دم حياة عزيزة حسبناها في بادىء الامر كسابقتها فافصح لنا صمتهُ اذ القى برأسهِ على صدر الوالهة الثكلى

لا تحسبوا دمعي تحدّر انها روحي جرت في دمعي المتحدر

يا للفاجعة . شقت الجيوب ولطمت الخدود واباح الذهول وفرط الجزع كل ما يأباهُ العقل الهادىء وفاض الحزن من الشفاه ندبا ومن العيون ماء حاراً

ايه يا منية النفس وشقيق الروح . ثكلك ابواك وخسرا بموتك ثمرة طيبة من ثمار نفسيهما وفقد اخوتك واهلوك الاخ المخلص والوفيّ البار فخيم عليهم الحزن على ما اصابهم من ثكل ولوعة . ولكن من هم هؤلاء النفر الكثير الذين ينتحبون حسرة عليك لعلهم جميعاً اسرى عواطفك السامية وخلقك الكريم

حفظت للصديق العهد ورويت الاخاء بالود متخذاً الامانة شعاراً والوفاء ديناً واجللت الشيخ الكبير مهما كان مركزهُ في الحياة لانك رأيت للسن حرمة ومكانة وعطفت على الفقير والجاهل ناصحاً ومرشداً شاعراً بان للناس نصيباً فيما ادركت من علم ومعرفة . وواسيت المحزون وضمدت جرح المكلوم مؤمناً بان السعادة في ان تكون طيب القلوب . واحسنت للمسكين لانهُ انسان وفي عرفك وعرف الحق ان للانسانية في ذمة كل فرد واجباً مقدساً . واجتذبت القلوب طراً بنور وداعتك وجمال بشرك واحببت الناس جميعاً لان قلبك الطاهر طبع على الحب والاخلاص فكل باك لفقدك اليوم انما يبكي شبابك الغضّ وما فقد فيك من كرم الشمائل ولكن تلك ارادة الله فلتكن ارادتهُ

اسكن اللهم فقيدنا جنان الخلد فقد كان من عبادك البررة المخلصين . وبلّي يا سماء ثراهُ باطهر الطل فقد كان ذا نفس زكية طاهرة . واطلعي يا شمس فوق ضريحهِ منيرة زاهية فقد قضى في ربيعهِ وزهائهِ . وغنّي يا ورق في كل شروق تحيات الصباح فلطالما انعشت موسيقاك روحهُ . واسجعي يا طير اذا حان الغروب الحان الوداع فقد كان طروباً . وآنس يا بدر وحشتهُ اذا جن الليل وانقطع الطارق والزائر فقد كان بالاجتماعات ولوعاً . واضيئي يا نجوم مثلاثة زاهية ساطعة فوق البقعة الكريمة التي حوت رفاتهُ العزيزة فقد كان مثلك فوق الارض كوكباً ساطعاً

وداعاً يا ساكن الرمس وفي القلوب ذكراك

وداعاً ايها الحبيب الراقد في النوم الاخير

وداعاً يا زهرة كان لي من طيب عبيرها روحاً اعيش بها واحيا

في ذمة الله وسلام عليك

مصرية